المحاضرة السادسة:

الزهد والتصوف في الشعر العباسي.

أولا: الزهد:

تمهيد:

يميل بعض الدارسين للأدب الجاهلي وتاريخه، وقضاياه أن الزهد قضية دينية قديمة، كان ينادي به المتدينون أو بعض معتنقي الديانات النصرانية. حيث نجد أن فؤاد أفرام البستاني يذهب إلى القول بهذا الرأي، في دراسته للزهد في الشعر الجاهلي: "وإذا اجتزنا ذكر الفناء إلى نوع الزهد في الدنيا، نرى أمية بن أبي الصلت يرفع لواءه، فيستكُّ بالأصنام، ويحرم الخمر، ويلبس المسوح، وينادي بالحنيفية وهي دين قوم من العرب يزعمون أنه دين إبراهيم الخليل"[1].

وهذا الزعم من فؤاد أفرام البستاني لا يمكن أن يقابل بالرفض، فهناك آثار أدبية من أشعار الجاهليين تدعمه، وتؤيده، فقد روي عن أمية بن أبي الصلت أبيات تحمل معاني الزهد في الدنيا وعدم الركون إليها، لأنها فانية، ومن أقواله الشعرية:[2]

كُلُّ دينٍ يومَ القيامةِ عندَ اللّهِ إلاَّ دينَ الحنيفةِ زور

وقال في فناء البشر:[3]

وكُلُّ مُعَمِّرٍ لابدَّ يوماً وذي دنيا يصيرُ إلى زوال
ويفنى بعدَ جِدَّتِهِ ويَبْلَى سوى الباقي المقدَّس ذي الجلال

والحق أن نزعة الزهد بدأت مع صدر الإسلام، يقول شوقي ضيف: تتردد في القرآن الكريم دائما الدعوة إلى الزهد في الحياة الدنيا ومتاعها الزائل، وهي دعوة تحمل في تضاعيفها الحث على التقوى والعمل الصالح، فالمسلم الحق من عاش للآخرة، ورفض عرض الدنيا. فلم يأخذ منه إلى بحظ محدود، حظ يقيم أوده، ويعده للكفاح في سبيل الله"[4].والقرآن الكريم يميل إلى ذم الدنيا وزينتها، ويقلل من شأنها، لأنها زائلة، فانية،فهي ليست دار بقاء يطمئن إليها المؤمن، بل هي مجرد معبر إلى الدار الآخرة، التي وصفها الله بأنها دار المقام والخلود، ومن ثم فنحن إزاء ثنائية ضدية هي الدين والدنيا.

وقد لقيت هذه الدعوى صدى كبيرا في نفوس المسلمين، "فلقد أضاءت هذه الدعوة والمواعظ القرآنية بنورها قلوب المسمين الأوائل، وملأت صدورهم وضمائرهم بمثالية روحية سامية، تمثلت بالعبادة والتبتل ومجاهدة النفس ورياضتها في الصوم والصلاة؟، فمال كثير من الصحابة الذين رافقوا الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الزهد والتقشف،

---

(1)- فؤاد أفرام البستاني: الشعر الجاهلي، نشأته- فنونه- صفاته، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، لبنان، 1927، ص26.
(2)- أبو فرج الأصفهاني: الأغاني، تح. احسان عباس، وآخرون، (ط1)، دار صادر بيروت، لبنان، 2002، المجلد الرابع، ص97.
(3)- أمية بن أبي الصلت: ديوان أمية بن أبي الصلت، سجيع جميل الجبيلي، ط1، دار صادر، بيروت، لبنان، 1998، ص101.
(4)- شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي العصر الإسلامي، (ط6)، دار المعارف، بمصر، القاهرة، 1973، ص369.

معرضين عن مغريات الحياة الدنيا وحطامها الزائل، داعين إلى الجهاد والعمل المثمر، مقتدين بزاهد الأمة الأول"[1].وقد ضرب الصحابة الكرام أروع الأمثلة في الزهد والورع، وذم الدنيا، ورأينا الكثير منهم لا يلقي لها بالا ولا يجتهد في تحصيل ما فيها من لذة ومتاع، ذلك أنهم تأثروا بعمق بالآيات القرآنية التي تدعوا إلى الزهد في الدنيا، والتعلق بالآخرة، والعمل لنيلها فهي دار الخلود.

بدايات الزهد في العصر العباسي:

إذا كان الدكتور شوقي ضيف يرجع تاريخ الزهد في الشعر العربي إلى العصر الأموي، فإن الدكتور محمد مصطفى هدّارة يرى أن ما قيل من أشعار في غرض الزهد، على لسان شعراء العصر الأموي، ما هو إلا إرهاصات أو مقدّمات ليس إلا، يقول: "ونحن وإن كنا نتفق مع شوقي ضيف في أكثر من موضع في حديثه عن نشأة الزهد وظهوره في الشعر الأموي، إلا أننا نرى أن مثل هذه الأشعار التي ظهرت في القرن الأول ليست هي الشعر الزهدي الذي ظهر في القرن الثاني، وأنها تختلف عنه اختلافا جوهريا لا يمكن التغاضي عنه، بحيث يمكننا أن نعتبر هذا الشعر الذي توجد فيه عناصر من الزهد والتقوى والإيمان والذي ظهر في القرن الأول، إرهاصا للشعر الزهدي الذي برز في القرن الثاني وكان اتجاها جديدا من اتجاهات الشعر العربي"[2].وقد بنى الدكتور مصطفى هدارة هذا الرأي على أساس الخصائص التي تفرق بين العصرين؛ الأموي والعباسي من حيث الثقافة والانتماء إلى الإسلام نفسه. وأن العصر العباسي هو عصر عرف ثورة فكرية وأدبية وسياسية، عملت على بروز الجديد في كل نواحي الحياة، وكان شعر الزهد أحدها، وبهذا يرى أن الظهور الحقيقي لغرض الزهد كان في العصر العباسي، يقول: "وأول حقيقة ينبغي التنبه إليها أن الزهد في القرن الثاني إنما هو مذهب له خصائص معينة وله أصول وعناصر يرتكز عليها، وليس مجرد ميل فطري إلى الزهادة وتقوى الله، أو حالة من حالات الإيمان يصورها الشاعر، كما يصور أي شعور ينتابه أو يعرض له"[3]، وبهذا يميز الدكتور مصطفى هدارة بين الزهد الذي هو فطري، والزهد كموضوع شعري مستقل.

وعن سبب نشأة الزهد تقول الدكتورةزينب سيد نور: "يمكن القول بأن الزهد في العصر العباسي كان بسبب أمرين ظاهرين: الأول أنه ردة فعل مباشرة على ما كان يشيع في المجتمع من مجون وفسق، فقد كان المجتمع آنذاك فيه عدة جوانب اجتماعية: مجتمع مسجد، وفيه حلقات الوعظ والارشاد، ومجتمع قصر الخلافة، وفيه خلط بين الوعظ والارشاد حينا، ومجتمع السمر واللهو، ومجتمع الحانات ودور القيان، وما فيها من مجون وفسق وانحلال"[4].

وهذا الأمر طبيعي في المجتمع العباسي الذي تتصارع فيه الثقافات، والعادات والتقاليد المتنوعة، بتنوع الأجناس البشرية، فهو عصر امتزاج الثقافات والتوجهات، فإذا كان لتيار اللذة والمتعة مناصروه، فإن لتيار الزهد مناصرون أيضا. وهما دون شك متناقضان.أما الأمر الثاني، "فهو تسرب فكري متعمد من قبل زعماء التيارات الفكرية الفاسدة مثل المانوية، وكذلك هو تأثر بالعقائد المجاورة اجتماعيا مثل النصرانية حيث يوجد لهم اختلاط مع المسلمين، ولابد من أثر

---

[1]- عبد الهادي الفكيكي: الاقتباس من القرآن الكريم في الشعر العربي، (ط1)، دار التميز للنشر والتوزيع، دمشق، سوريا، 1996، ص16.

[2]- محمد مصطفى هدارة: اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1963، ص284.

[3]- المرجع نفسه، ص 284.

[4]- زينب سيد نور: شعراء الزهد في العصر العباسي الأول، دار الجنان للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2016، ص21.

لهذا الاختلاط"[1].فالتأثر بعقائد الأمم التي سيطرت عليها الدولة الاسلامية في العصرين الأموي والعباسي واضح في هذا العصر على وجه التحديد. ويرى شوقي ضيف أن تأثر الزهد الاسلامي بالزهد المسيحي موجود، لا يمكن إنكاره، إلا أنه يفرق بينهما، من جهة التوجه الذي يقوم عليه كل منهما، يقول في هذا: "ونحن لا نمنع التأثر العام، ولكن ينبغي أن يستقر في نفوسنا أن الزهد الاسلامي يختلف عن الزهد المسيحي في جوهره، إذ الزهد عند المسيحيين ورهبانهم يقوم على أساس من فكرة الخطيئة، والاسلام لا يقر هذه الفكرة وما تؤدي إليه من تعذيب الجسد، فإن لبدن المسلم عليه حقا، ومن أجل ذلك نهى الإسلام عن العزوبة، بينما دعت إليه المسيحية"[2].

وبناء على هذا، فإن الزهد موجود في كل الديانات، باعتباره نزعة روحية، يتركز في المقومات الدينية والتعاليم التي تقوم عليها، وبهذا ترى الدكتورة زينب سيد نور أن للزهد ثلاثة أوجه، هي[3]:

أولا: زهد ديني صحيح، يخلص فيه المرء دينه لله.

ثانيا: زهد مال إليه نفر من الناس بسبب الحرمان.

ثالثا: زهد مانوي مارق، وهذا الذي يمكن ربطه بالبوذية.

أما الأستاذ عبد الهادي الفكيكي، فينكر هذا الرأي، ويرى أن الزهد كان أثرا من آثار القرآن في اللغة العربية وآدابها عامة، فيقول: "إن الزهد في الشعر العربي شاع في الصدر الأول من عصر الرسالة فكان أثرا من آثار القرآن (...) أما قول بعض الأدباء الدارسين: إن أبا العتاهية هو الذي نهج الشعراء منهاج الزهد والعظات فاقتفوا أثره فيها، وما عرضه بعضهم بما يوحي للقارئ أنه وليد العصر العباسي، مما أفرزته الأوضاع السياسية والاجتماعية التي تردت منذ عهد "المهدي" خاصة، فليس دقيقاً، بل هو رأي غير صحيح"[4]. ويمكن أن يكون هذا الرأي قريبا من الحقيقة إذا اعتبرنا أن هؤلاء الزهاد يعيشون خارج إطار الظروف الاجتماعية والسياسية التي عرفها العصر العباسي.ومهما يكن من أمر نشأة الزهد وأسبابه، فإن بين أيدينا تراثا شعريا في موضوع الزهد يمكن دراسته وفق المناهج النقدية المعاصرة، وهي وحدها التي يمكنها أن تميط اللثام عن قضايا الزهد.

موضوعات الزهد في الشعر العباسي

تمهيد:

تعددت موضوعات شعر الزهد في العصر العباسي، تعددا ينم عن الثقافة الواسعة التي يتمتع بها شعراء الزهد، كما ينم عن تأثرهم الكبير بالقرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، باعتبارهما أهم المصادر الدينية التي أسهمت بشكل واضح في بلورة التجربة الشعرية لدى الزهاد مما سهل عليهم الخوض في موضوعات كثيرة، لا تخرج في جملتها عن دائرة الوعظ والتزهيد في الدنيا وفيما يلي بعض الموضوعات الزهدية، وهي كالآتي:

---

[1]- زينب سيد نور: شعراء الزهد في العصر العباسي، ص21.

[2]- شوقي ضيف: العصر العباسي الأول، (ط8)، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1966، ص86.

[3]- زينب سيد نور: المرجع السابق، ص22.

[4]- عبد الهادي الفكيكي: الاقتباس من القرآن الكريم في الشعر العربي، ص 18-19.

أ- الموت: يعد الموت من أكثر الموضوعات شيوعا في شعر الزهد زمن العصر العباسي، فقد "أكثر الشعراء من ذكر الموت والوعظ به، واعتبروه النهاية المحتومة التي لا مهرب منها، ولا يمكن جحدها، ولا يملك أحد ردّها ولها وقت معلوم لا تستقدم عنه ولا تستأخر"[1]. ومن نماذج الحديث عن الموت ما جاء في شعر الصنوبري:[2]

ما ولدت نفس أرضعت ... ما نوهت نفس ولا متعت
ما قدرت أرزاق أيامنا ... فضيقت في القدر أو وسعت
إلا لتدعى عن ميقاتها ... حتى إذا ما دعيت أسرعت

وقوله أيضا:[3]

أذكر الموت واعتبر ... واصدق النفس وازدجر
من سيمضي إلى القبو ... ر غدا مثل من قبر

ويقول في ذكر الموت الذي لا مفر منه:[4]

كم اختطف الردى من فوق حصن ... كم انتزع الردى من فوق سور
وكم ممن غدا فوق الحشايا ... وبات مغيبا تحت الصخور
وكم لك من أخ قد سار أو من ... أخ سيسير عنك على سرير

في هذا السياق يؤكد أبو العتاهية على حتمية الموت الذي لا يقف في طريقه حرس أو إنس أو جن، فيقول:[5]

ما يدفع الموت أرصاد ولا حرسُ ... ما يغلب الموت جنّ ولا أنس
ما إن دعا الموت أملاكا ولا سوقا ... إلا ثناهم إليه الصرع والخلس
للموت ما تلد الأقوام كلهم ... وللبلى ما بنوا، وما غرسوا
هلاّ أبادر هذا الموت في مهل ... هلا أبادره ما دام لي نفس
يا خائف الموت! لو أمسيت خائفه ... كانت دعوتك طوال الدهر تنبجس

وقد أكثر الشاعر أبو العتاهية من ذكر الموت في شعره الزهدي باختصاصه في الزهد، وفاق فيه كل شعراء العصر العباسي الذي عاش فيه.

---

(1)- نزار عبد الله الضمور: الزّهد في الشعر العباسي، ط1، دار الحامد للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، 2012، ص58.
(2)- الصنوبري: ديوان الصنوبري، تح. احسان عباس، ط1، ر صادر، بيروت، لبنان، 1998، ص292.
(3)- المصدر نفسه، ص 84.
(4)- المصدر نفسه، ص 85.
(5)- أبو العتاهية: يوان أبي العتاهية، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1986، ص 224.

2- **التنفير من الدنيا:** ارتبط ذم الدنيا والتنفير منها بشعر الزهد، فكان الشعراء يزهدون الناس فيها وبخاصة أولئك الذين غلبت عليهم النزعة الزهدية في أواخر حياتهم، ومنهم أبو العتاهية الذي كان يذم الدنيا ويزهد في نعيمها، ويعيب على من يغره رونقها، ويطغيه زبرجها"[1]، يقول أبو العتاهية:[2]

لعمـــرك، مـــا الدنيـــا بـــدار بقـــاء ... كفـــاك بـــدار المـــوت دار فنـــاء
فـــلا تعشـــق الدنيـــا أُخيَّ فإنمـــا ... يـــرى عاشـــق الدنيـــا بجهـــد بـــلاء
حلاوتهـــا ممزوجـــة بمـــرارة ... وراحتهـــا ممزوجـــة بعنـــاء
فـــلا تمـــش يومـــا في ثيـــاب مخـــيلة ... فإنـــك مـــن طـــين خلقـــت ومـــاء

ولأبي جعفر القرشي كلام جميل، يذم فيه الدنيا، يقول فيه:[3]

يا عاشـــق الدنيـــا ولـــد ... نيـــا ســـمادير وســـكر
اسمـــع لموعظـــة الزمـــا ... ن فمـــا بســـمعك وقـــر
كم قـــد مضى مـــلك له ... نظـــر إلى الجلســـاء شزر
وله مباهـــاة بمـــا ... لم يبـــق فيـــه له فخـــر

3- **القناعة:** القناعة هي الرضا بالقليل من أمور الدنيا، الحلال الذي يعز صاحبه خير من الكثير الحرام، وقد حث الإسلام على القناعة ورغب فيها، وقد تأثر الشاعر العباسي بتعاليم الدين، وأصبح يحث الناس عليها؛ فهذا "أبو العتاهية يفضل الرضا بالقليل، مع الكرامة على الكثير مع الهوان والذل، فرغيف خبز وكوب ماء، وغرفة ضيقة، ومسجد معزول تكعف فيه، خير من الكثير، إنها القناعة بما قسم الله له"[4]. ومن النماذج الشعرية الزهدية، التي تناولت هذا الموضوع قول أبي العتاهية:[5]

رغيـــف خـــبر يابـــس ... تأكلـــه في زاويـــة
وكـــوب مـــاء بارد ... تشربـــه مـــن صـــافية
وغرفـــة ضـــيقة ... نفســـك فيهـــا خاليـــة
أو مســـجد بمعـــزل ... عـــن الـــورى في ناحيـــة
تـــدرس فيـــه دفـــترا ... مســـتندا بســـارية
معتـــبرا بمـــن مضى ... مـــن القـــرون الخاليـــة

---

(1)- محمود مصطفى: الأدب العربي وتاريخه في العصر العباسي، ط2، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، 1937، ج2، ص 452.

(2)- أبو العتاهية: ديوان أبو العتاهية، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1986، ص12.

(3)- ابن أبي الدنيا: "موسوعة رسائل ابن أبي الدنيا"، ط1، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، 1993، ج2، ص 75-76.

(4)- حسن فالح البكور: دراسات في الشعر العباسي الرؤيا والتشكيل، دار الخليج، للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ص30.

(5)- عبد العزيز المحمد السلمان: مجموعة القصائد الزهديات، (ط1)، مطابع الخالد للأوفيست، الرياض، المملكة العربية السعودية، ج2، ص 315.

ومن الشعر الذي يحث على القناعة، قول الشاعر العباسي محمود الوراق:[1]

إن القناعـــة مـــا علمـــت غـــنى والحـــرص يـــورث ذا الغـــنى فقـــرا

ومن أقوال أبي العتاهية في القناعة أيضا:[2]

وسربلـــت أخـــلاقي قنوعـــا وعفـــة فعنـــدي بـــأخلاقي كنـــوز مـــن الذهـــب
فـــلم أر حظّـــا كالقنـــوع لأهـــله وأن يجمـــل الانســـان مـــا عـــاش في الطلـــب
وتمـــــرّ أزمنـــــة بنـــــا يمـــضي بهـــا شـــهر وشـــهر
وتمـــــر فينـــــا الحـــــادثا ت لهـــــا نبـــــاطي ونـــــشر
ويكـــون مـــن يبـــني القصـــو ر يضـــمه مـــن بعـــد قـــبر
والدهـــــر فيـــــه عجائـــــب مـــن وصـــفه شـــفع ووتـــر
وعـــوابر الدنيـــا تمـــر عـــ ليـــك وأنـــت لهـــن جـــسر
ولـــربّ حـــال بـــين صـــا حبهـــا وبـــين المـــوت فقـــر
ومـــن يفـــك لعاشـــق الدّ نيـــا مـــن الشـــهوات أسر

ومن ذم الدنيا قول أبي العتاهية:[3]

طلبتـــك يا دنيـــا فأعـــذرت في الطلـــب فمـــا نلـــت إلا الهـــمّ والغـــمّ والنّصـــب
فلـــما بـــدا لي أنـــني لســـت واصـــلا إلى لذة إلا بأضـــعافها تعـــب
وأسرعـــت في ديـــني، ولم أقـــض بغيـــتي هربـــت بـــديني منـــك، إن نفـــع الهـــرب
تخليـــت ممـــا فيـــك جهـــدي وطـــاقتي كـــما يـــتخلى القـــوم مـــن عـــرة الجـــرب
فمـــا تم لي يومـــا إلى الليـــل منظـــر أسرّ بـــه، إلا أتى دونـــه شـــغب

من خلال هذه النماذج لشعرية نجد أن شعر الزهد كام منصبا في بعض موضوعاته على ذم الدنيا الفانية، وعلى التحذير منها، فهي لم تصف لأحد من الناس، فلا يثق فيها إلا مغرور جاهل، قد فتن بزا. ولم يخل يوان شعري لشعراء العصر العباسي من قصائد تحط من قيمة الدنيا وتزهد في نعيمها.

4- التوبة والإنابة:التوبة من أهم الموضوعات أو القضايا التي كثر الحديث عنها في شعر الزهد العباسي، ومعناها: "الرجوع إلى الله بحل عقدة الاصرار عن القلب ثم القيام بكل حقوق الرب"[4]، وهي أيضا تعني العبد على ذنوب ن قد ارتكبها ولإقلاعه عنها، ومن المعلوم ن الله يرغب المؤمنين به إلى التوبة وبهذا هما "من الأخلاق الاسلامية دعا إليها ديننا الاسلامي الحنيف وعموده القرآن الكريم، فلقد ارتبطت التوبة بصفات المسلمين العائدين إلى رحاب الرحمة الإلهية أخطاء

---

(1) محمود الوراق: ديوان الزهد والحكمة، شعر محمود الوراق، جمع وتحقيق، أيمن السيد علي الصياد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1971، ص 67.

(2)- أبو العتاهية: ديوان أبي العتاهية، ص49.

(3)–المرجع نفسه، ص49.

(4)- زينب سيد نور: شعراء الزهد في العصر العباسي الأول، دار الجنان للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ص65.

أو ذنوب ارتكبوها لحظات من الضعف أو النسيان أو اللهو أو السهو"[1]؛ والنفس أمارة بالسوء قد تغلب المؤمن، هو ضعيف وخطاء بطبعه، لكن المؤمن سرعان ما يعود إلى ربه تائبا مستغفرا قبل أن يدركه أجله وقد عبر أبو العتاهية عن موضوع التوبة في شعره الزهدي، مرغبا فيها، حيث يقول:[2]

خانـــــك الطـــــرف الطمـــــوح	أيهـــــا القلـــــب الجمـــــوح
لدواعـــــي الخـــــير والـــــشّر	دنـــــــو ونـــــــزوح
هـــــل لمطلـــــوب بـــــذنب	توبـــــة منـــــه نصـــــوح
لتمـــــــوتنّ وإن عمـــــــرت	مـــــا عمّـــــر نـــــوح

وما دام أبو العتاهية يتكلم على التوبة النصوح، فإنه يتخذ من القرآن الكريم مصدرا يقتبس منه المعاني والألفاظ، من قوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن يكفّر عنكم سيئاتكم ويدخلكم جنات تجري منتحتها الأنهار يوم لا يخزي الله النبيَّ والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبإيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شيء قدير" (سورة التحريم، الآية: 08).

ومن شعر التوبة الذي يدعو الشاعر فيه نفسه إلى التوبة من ذنوب اقترفها، ويستغفر ربه ويتوب إليه ما روي من أبي القاسم بن يوسف، في قوله:[3]

إلى الله مـــــن عـــــودتي تـــــوبتي	أتـــــوب إليـــــه واســـــتغفره
وأثـــــني عليـــــه بآلائـــــه	ثنـــــاء الشـــــكور ولا أكفـــــره
وأخلـــــع مـــــن دونـــــه مـــــن دعـــــا	إلهـــــا ســـــواه ومـــــن يفجـــــره
واســـــتغفر الله ممـــــا جنيـــــت	ومـــــا قـــــد نســـــيت ومـــــا أذكـــــره
ومـــــا أحـــــاط بـــــه علمـــــه	وأتقنـــــه كاتـــــب يســـــطره
لألقـــــى الاله ولا ذنـــــب لي	أســـــائل عنـــــه ولا أحـــــذره
إذا كان يـــــأتي الذي لا يريـــــب	ويـــــترك منـــــه الذي يفجـــــره
كـــــذاك روينـــــا عـــــن المصـــــطفى	وأصحابـــــه في الذي ناثـــــره

المتأمل في هذه الأبيات يجد أن معانيها مأخوذة من القرآن الكريم، في قول الله عز وجل: "إلّا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما" (سورة الفرقان، الآية: 71).مما نلاحظ حول موضوع التوبة في شعر الزهاد أن معجمه اللغوي والشعري يعتمد على القرآن الكريم في استلهام الألفاظ والمعاني المتعلقة بالاستغفار من الذنب والعودة إلى الله قبل فوات الأوان.

---

[1]- زينب سيد نور: شعراء الزهد في العصر العباسي الأول، ص65.

[2]- مؤلف مجهول: أبو العتاهية أشعاره وأخباره، تح. د. شكري فيصل، مطبعة جامعة دمشق، سوريا، 1965، ص 97-99.

[3]- أبو بكر الصولي: كتاب الأوراق، قسم أخبار الشعراء، تح. "ج. هيورث د ن"، ط1، مطبعة الصاوي، مصر، 1934، ص149.

5- الوعظ والنصح:النصح والارشاد من أهم موضوعات شعر الزهد في العصر العباسي، حيث يستلهم الشاعر ألفاظه ومعانيه من التراث الإسلامي، في مصدريه: القرآن والحديث والسنة النبويةوالوعظ في أصله من أعمال الوعاظ والخطباء الذين ساهموا في توفير المعاني للشعراء، كما يرى شوقي ضيف حيث يقول: "وممن يكثر من إنشاد الشعر في مواعظه سفيان بن عيينة وسفيان الثوري، وكأن الوعاظ بذلك قدموا مادة واسعة لمعاصريهم من الشعراء كي يصوغوا على نمطها مواعظ تذكر الزهد والعمل الصالح في نفوس الناس"[1]؛ فهذا الموضوع الشعري يعتمد على منجزات الوعاظ من العلماء والزهاد، الذين تحقق فيهم الزهد قولا وعملا[2].وللوعظ أساليب يستخدم فيها ذكر الموت وحوادث الزمان، والحث على الصبر، والجهاد في عمل الخير إلى غير ذلك من المعاني، ومن القصائد الوعظية ما جاء في كتاب "التبصرة في الوعظ"، حيث يقول أحد الشعراء:[3]

اصبر لمرّ حوادث الدهر ... فلتحمدن مغبّة الصّبر
واجهد لنفسك قبل ميتتها ... واذخر ليوم تفاضل الذخر
فكأنّ أهلك قد دعوك فلم ... تسمع وأنت محشرج الصّدر
وكأنهم قد قلبوك على ... ظهر السرير وأنت لا تدري
وكأنهم قد زودوك بما ... يتزود الهلكى من العطر
يا ليت شعري كيف أنت على ... نبش الضريح وظلمة القبر
ويا ليت شعري كيف أنت إذا ... غسّلت بالكافور وبالسّدر
يا ليت شعري ما أقول إذا ... وضع الكتاب صبيحة الحشر
ما حجتي فيما أتيت على ... علم ومعرفة وما عذّري
يا سوأتا مما اكتسبت ويا ... أسفي على ما فات من عمري
ألّا أكون عقلت شأني فاستقبلت ... ما استدبرت من أمري

ومن شعر الوعظ، قول أبي العتاهية:[4]

قد سمعنا الوعظ لو ينفعنا ... وقرأنا جلّ آيات الكتب
كلّ نفس ستوفّى سعيها ... ولها ميقات يوم قد وجب
جفت الأقلام من قبل بما ... ختم الله علينا وكتب
كم رأينا من ملوك سادة ... رجع الدّهر عليهم فانقلب
وعبيد خوّلوا ساداتهم ... فاستقر الملك فيهم ورسب
لا تقولن لشيء قد مضى ... ليته لم يك بالأمس ذهب

---

(1)- شوقي ضيف: العصر العباسي الأول، ط8، دار المعارف، القاهرة، مصر، ص400.

(2)- ينظر، مازن طلال الناصر: المنظومات التعليمية في الشعر العباسي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، دار الأكاديميون للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ص137.

(3)- عبد الرحمان بن الجوزي: التبصرة، تح. مصطفى عبد الواحد، ط1، دار السلام، القاهرة، مصر، 2012، ج1، ص38.

(4)- مؤلف مجهول: أبو العتاهية أشعاره وأخباره، تح. شكري فيصل، مطبعة جامعة دمشق، 1965، ص 29-30.

ويقول أبو العلاء المعري:[1]

وعـــظ الزمـــان فمـــا فهمـــت عظاتـــه	وكأنـــــه في صمتـــــه يـــــتكلم
لـــو حاورتـــك الضـــأن قـــال حصـــيفها	الذئـــب يظـــلم وابـــن آدم أظـــلم
صـــبرا عـــلى دنيـــاك يـــنقض حينهـــا	فكأنهـــا حـــلم بنـــوم يحـــلم
ولربمـــا قضـــت الأناة مـــآربا	مـــن نازح ولـــكل عـــال ســـلّم
كل تســـير بـــه الحيـــاة ومـــا له	عـــلم عـــلى أي المنـــازل يقـــدم
ومـــن العجائـــب أننـــا بجهـــالة	نبـــني وكل بنـــاء قـــوم يهـــدم
وأضـــيع أوقـــاتي بغـــير ندامـــة	ويفـــوتني الشيـــء اليســـير فأنـــدم

يعتمد الوعظ في شعر الزهد العباسي على أصول الدين الإسلامي ومفاهيمه، وأول هذه الأصول هو القرآن الكريم، حيث يوفر للشاعر معجما لغويا ثريا بالألفاظ الدالة على حقل الزهد، والمعاني التي تحمل كل الدلالات المرتبطة به، حيث "تتردد المعاني التي تدعو إلى الزهد في الحياة الدنيا ومتاعها الزائل، وهي دعوة تحمل في تضاعيفها الحث على التقوى والعمل الصالح"[2]. وقد وردت في الشواهد الشعرية السابقة مجموعة من المعاني الوعظية، نجملها فيما يأتي:

- الصبر على حوادث الدهر وصروفه.
- التذكير بالموت والقبر وحياة البرزخ.
- التخويف من لحظة خروج الروح من الجسد.
- التذكير بيوم البعث والحساب على الأعمال.
- بيان حقيقة الدنيا وزوالها وانقلابها على أهلها.

6- الشيب: الشيب من الموضوعات التي أخذت حيزا لا بأس به في الشعر العربي القديم، وفي شعر الزهد بشكل خاص، ومن المعلوم أن للشيب أثرا كبيرا في نفس الشاعر الذي يبدي قلقا وتخوفا. أمام الشيب كونه علامة على ذهاب الشباب ودخول الشاعر في الشيخوخة واقترابه من الموت، وهذا ما يعترف به الدكتور أحمد علي الفلاحي، بقوله: "لذلك نرى أن ظهور الشيب في رأسه جعل هاجس الخوف من الموت ملازما له فكان يكثر من تصوير الشيب الذي يعني له بداية النهاية أو الاقتراب من الموت"[3]؛ وهذه الفكرة يندرج تحتها ما قيل من شعر سواء أكان في موضوع الزهد أم في غيره من

---

[1]- أبو العلاء المعرّي: ديوان اللزوميات، تح. د. عمر الهباع، دار الأرقم ابن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ج1، ص288-289.

[2]- يونس اللهيبي: أدب زهاد التابعين موضوعاته وفنونه، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1971، ص209.

[3]- أحمد علي الفلاحي: الصورة في الشعر العربي، (ط1)، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ص86.

الموضوعات، مع اختلاف في الطرح والتعبير والتصوير- ومن نماذج موضوع الشيب في شعر الزهد، قول أبي العتاهية وهو يشكو ألم الشيب، ويبكي على شبابه:[1]

بكيت على الشباب بدمع عيني ... فلم يغن البكاء ولا النحيب
فيا أسفا أسفت على شباب ... نعاه الشيب والرأس الخضيب
عريت من الشباب وكأن غصنا ... كما يعرى من الورق القضيب
فيا ليت الشباب يعود يوما ... فأخبره بما فعل المشيب

ويقول أيضا:[2]

رأيت الشيب يعروكا ... بأن الموت ينحوكا
فخذ حذرك يا هذا ... فإني لست آلوكا

ويقول أيضا:[3]

كبرنا أيها الأتراب حتى ... كأنّا لم نكن حينا شبابا
وكنا كالغصون إذا تثنت ... من الريحان مونعة رطابا
إلى كم طول صبوتنا بدار ... رأيت لها اغتصابا واستلابا
ألا ما للكهول وللتصابي ... إذا ما اغترّ مكتهل تصابا
فزعت إلى خضاب الشيب مني ... وإن نصوله فضح الخضابا
مضى عنّي الشباب بغير ردّ ... فعند الله احتسب الشبابا
وما من غاية إلّا المنايا ... لمن خلقت شبيبته وشابا

تشكل ثنائية الشباب والشيب في شعر الزهد بصفة عامة، وفي شعر أبي العتاهية بصفة خاصة، ثنائية الحياة والموت؛ فالشباب عنده يعني الحياة وأما الشيب فيعني الموت والفناء، والتعلق بالشباب في الواقع تعلق بالحياة وتشبث بها، والفزع من المشيب خوف من الموت، وأبو العتاهية دائما لا يرى في الشيب سوى الناعي الذي ينذر بدنو الأجل، ويدفع الإنسان إلى حتفه في صراع عجيب بين اندفاع إلى هاوية الموت ملح شديد وبين تشبث بالحياة يائس"[4].وقد كان الصراع بين الشباب والشيب منذ الأزل، وكانت الغلبة في النهاية للشيب، لهذا كان أبو العتاهية يقف من الشيب موقفا يدل على حيرته وخوفه منه لأنه يعني له قرب النهاية، فهو نذير الموت.

7- الحكمة:تعد الحكمة من أهم القضايا والموضوعات في الشعر العربي بصفة عامة، وفي شعر الزهد بشكل خاص، ويعرفها الدكتور محمد التونجي بأنها: "تجربة وقع بها الناس فعرضها الحكماء نثرا والشعراء نظما، ولقد استنتجوا من خلال تجاربهم

---

[1]- أبو العتاهية: ديوان أبي العتاهية، ص46.
[2]– أبو العتاهية: ديوان أبي العتاهية، ص46.
[3]- المرجع نفسه، ص32.
[4]- أحمد محمد عليان: أبو العتاهية حياته وأغراضه الشعرية، ص158.